مجلة التاريخ المتوسطي. المجلد 06، العدد 02. شهر ديسمبر 2024. ص: 458 - 475
P-ISSN: 2716-764X, E-ISSN: 2716-7747

ت. الإرسال: 13 – 10 - 2024	ت. القبول: 09 – 12 - 2024	ت. النشر: 30 – 12 - 2024

الأبعاد الأنثروبولوجية للمسكن التقليدي الجزائري: المسكن الشاوي والصحراوي نموذجا

Anthropological dimensions of traditional Algerian houses: The Chaoui and Saharan dwellings as models

بلعيدي رفيق جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر
مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر
rafiq.belaidi@univ-biskra.dz

حبيب سعيدة جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر
مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر
saida.hebieb@univ-biskra.dz

الملخص:

تهدف الدراسة الحالية لفهم الأبعاد الثقافية والاجتماعية المرتبطة بعملية بناء المسكن التقليدي الشاوي والصحراوي، عن طريق تقديم تفسير أنثروبولوجي لمركب ثقافي مادي، يعرف ثراء رمزيا بين المادة التي تدخل في تركيبته والمعاني التي تحملها، والمكونة نتيجة محددات ايكولوجية وثقافية واقتصادية واجتماعية، فالمسكن استجابة لحاجة بيولوجية ولد وصبغ بشبكة من الرموز والدلالات الثقافية. إذ تسعى الدراسة لمعالجة إشكالية الحاجة والمعنى للمسكن الشاوي والصحراوي، وفهم العلاقة بين المسكن وساكني المجتمع الشاوي والصحراوي. حيث تم الاعتماد على المنهج الاثنوغرافي لمعايشة تلك المحددات الثقافية الوظيفية التي تساهم في بناء المسكن ثم ترجمتها وفق بيئتها، بأخذ عينة من المساكن في الوادي الأبيض ووادي سوف، وإجراء مقابلة مفتوحة مع 20 شخصا. وخلصت الدراسة أن المجتمع الشاوي يتأثر فيه المسكن بالمحددات الثقافية والبيئية الصعبة، ويتميز بالبساطة في الهندسة والشكل الفني الجمالي، أما المسكن الصحراوي الذي تتأثر هندسته بالمناخ الحار ومحددات تولدت ضمن بيئتها الثقافية الصحراوية التي تلزم العمارة بهندسة معقدة تميل لتعددية التقسيم المجالي والبحث عن الجمالية في مظهر المسكن.

الكلمات المفتاحية: المسكن، العمارة، المجتمع الشاوي، المجتمع الصحراوي.

Abstract:

The current study aims to understand the cultural and social dimensions associated with the process of building traditional Chaoui and Saharan housing by providing an anthropological interpretation of a material cultural complex, characterized by symbolic richness between the materials used in its construction and the meanings they carry, with ecological, cultural, economic, and social determinants. The dwelling is a response to a biological need, shaped by a network of cultural symbols. The study seeks to address the issue of need and meaning in Chaoui and Saharan housing and to understand the relationship between the dwelling and its inhabitants. The ethnographic method was relied upon to examine those functional cultural determinants that contribute to housing construction, by taking a sample of houses in the White Valley and Ouled Souf, and conducting open interviews with 20 individuals. The study concluded that in the Chaoui community, housing is influenced by challenging cultural and environmental determinants, characterized by simplicity in engineering and aesthetic form. In contrast, Saharan housing, which is influenced by the hot climate and determinants arising from its cultural desert environment, necessitates complex architecture, diverse spatial divisions, and a search for beauty in the appearance of the dwelling.

Key words : Housing, architecture, Shawi community, desert community.

المؤلف المرسل: رفيق بلعيدي، **الإيميل:** rafiq.belaidi@univ-biskra.dz

مقدمة

عاش الإنسان في صراع دائم مع الطبيعة في محاولة للتغلب عليها تارة والرضوخ لها تارة أخرى، وأمام كل تلك المخاطر والتهديدات الناجمة من التقلبات الطبيعية والمناخية والهجمات الحيوانية عليه، كان ملزما بالدخول في مرحلة التكيف مع البيئة التي يعيش فيها، في محاولة لتجنب تلك المخاطر المهددة لحياته، ولتحقيق دافع الأمان ولكونه حيوان ثقافي، فقد استجاب ثقافيا لذلك بتوصّله لنموذج المسكن، ذلك الحيز الجغرافي الهندسي الذي أصبح مع الوقت يؤثر على ساكنيه ويخضعهم لمحددات ثقافية واجتماعية تحكم بناءه وتشييده، فلم يعد يكفي بناء منزل والعيش فيه لتجنب البرد أو الحرارة، بل ولكون الإنسان يحب التفرد والتميز، أحاطه بشبكة من الرموز الثقافية والاجتماعية، وأخضعه لجملة من الأنشطة الاقتصادية التي يمارسها؛ وأدى التعايش بين الأفراد في المجتمع الواحد لخلق تجمعات سكنية تحكمها مجموعة قيم وعلاقات يفرضها المجتمع وتحدّد أبعاد التساكن ضمن هذه الفضاءات الاجتماعية التي تحاول الحفاظ على نظرة مشتركة للحياة وخلق صورة ووعي جمعي لسير المجتمع.

زادت أهمية دراسة المسكن في مختلف جوانبه نتيجة الحمولة الظواهرية التي يشهدها المسكن، والتي تختلف من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى، وارتباطه بمجموعة رموز ومعتقدات وعقائد شعبية، كل ذلك يجعل من الإنسان كائنا يبدع ويفكر في إنتاج عنصر ثقافي مادي يلبّي حاجاته بالدرجة الأولى، من شعور بالأمان والحماية وكجهاز دفاعي، بهدف تحقيق نوع من الاستقرار النفسي و الاجتماعي، لكن مع اختلاف الظروف المعيشية والتاريخية والإيكولوجية للمجتمعات، فقد أخذ المسكن في التخصص والتمايز والاختلاف، فتشابهت البنيات واختلفت الوظائف والدلالات. فالمسكن قد يبدو شكلا هندسيا جامدا في النظرة الأولى، لكنه في الحقيقة ينطق ثقافيا واجتماعيا، وهذا ما يستدعي ضرورة استنطاقه لفهم علاقة الإنسان بالمسكن، وكيف يمارس فيه ثقافته الحيوانية في عالمه الاجتماعي الذي لا يخلو من قيود ثقافية ودينية واقتصادية واجتماعية تتداخل فيما بينها لتحكم قبضتها على الفرد الشاوي و السوفي.

أمام هذه الأهمية والتمايز الثقافي للمسكن الذي يسعى الفرد للوصول له، وقفت هذه الدراسة على دراسة المسكن بين المجتمعين الشاوي والسوفي، اللذان يحظيان باختلاف ثقافي واجتماعي و إيكولوجي؛ فكانت لدراسة الأنثروبولوجية الفرنسية "Danièle Jemma-Gouzon" بعنوان "Villages de l'Aurès" أهمية كبيرة في فهم وتحليل المسكن الشاوي في منطقة الوادي الأبيض، وساعدها اعتماد المقاربة البنيوية على فهم دور الشاوية في استثمار ماضيهم وثقافتهم ورؤيتهم و تمثيلاتهم في المسكن، وقدرتهم على فرض أنفسهم على الطبيعة وبسط تاريخهم وثقافتهم عليها.؛ في حين استنتج الباحثان "عبد الحليم عساسي و الطاهر بلال " في دراستهما الميدانية بعنوان: "الثوابت المجالية في المسكن التراثي التقليدي جنوب الوادي الأبيض" ومن خلال تطبيق مقاربة التركيب المجالي، توصلا لتأثير النسق القيمي المشترك في المنطقة كالخصوصية والمراقبة والحرمة ومقاومة الطبيعة على بناء المسكن الشاوي؛ الأمر الذي يجعل من السكن الشاوي استجابة ثقافية قيمية ورمزية. أما الباحث "حسونة عبد العزيز" في دراسته الميدانية "العمارة والعمران بمنطقة سوف (10 - 13هـ/ 16 - 19م)" وبالاعتماد على المنهج التاريخي، تمكن من فهم علاقة المسكن في "وادي سوف" مع الحاجة للاستقرار والأمن لدى السكان، وتأثير

العمارة الإسلامية على الطابع الجمالي لها؛ في حين توصل الباحثان "عبد الحميد نجار وعبد اللاوي ليندة " عبر تطبيق المنهج الأنثروبولوجي في دراستهما الموسومة ب: "البعد الأنثروبولوجي والديني لبناء المسكن الصحراوي ومسألة المقاومة للعصرنة الجديدة" لتأثير الأعراف والقيم التي يجسدها الساكن في مسكنه خاصة القيم الدينية منها والتي تقاوم الانتقال الكلي للمسكن المعاصر. ما يبرز علاقة الساكن بالمسكن والطبيعة المحيطة به، ودور النظام القيمي في فهم رمزية ووظيفية المسكن السوفي.

من الضروري الوقوف على نوعية الاستجابة الثقافية لظاهرة المسكن في المجتمعين، والعمل على الولوج للخطاب الاجتماعي المميز لكل مجتمع منهما. إذ يتعامل المجتمعين الشاوي والصحراوي مع المسكن تعاملا يفوق مجرد بناء وشكل هندسي، إذ تحكمه دلالات رمزية تخفي وراءها مجموعة معاني يتمثلها الأفراد نحو المسكن وساكنيه، ونظرة اجتماعية إليه تلزم الأفراد بتقويض حرياتهم في تصميمه وبنائه وتجسّد طرق التعامل معه، كما أن الثراء الرمزي الذي تتميز به العمارة التقليدية في كل من المجتمعين من حيث الخطاب الرمزي للعناصر المعمارية والعمرانية للمسكن، وتأثير المحددات الاجتماعية والقيمية على تقسيم المسكن والمعاني المسافات بين الغرف والتفصيل الداخلي والخارجي له، ومحاولة انسجامه مع نظام الجيرة والثقافة الجمعية والاقتصادية السائدة، يجعلنا نستشكل عدة تساؤلات: كيف يمكن فهم العلاقة بين المسكن وساكني المجتمع الشاوي والصحراوي السوفي؟ ماهي الدلالات الثقافية للمسكن في المجتمعين على ضوء المحددات السوسيو-ثقافية؟ ماهي تصورات أفراد المجتمع الصحراوي والشاوي نحو المسكن؟

استغرقت الدراسة مدة عامين من البحث الميداني والتحليل النهائي، تمّ الاعتماد فيها على المنهج الإثنوغرافي لجمع البيانات الميدانية وتحليلها من خلال وصف الشكل الهندسي للمسكن في المجتمع السوفي والشاوي، وملاحظة الخصائص الثقافية والاجتماعية التي تحكم وتترجم تفاعل الأفراد مع المسكن داخليا وخارجيا؛ وكذلك المنهج المقارن لمقارنة المحددات السوسيو-ثقافية التي يخضع لها المسكن في المجتمعين. ولتحقيق ذلك تم توظيف الملاحظة بالمشاركة لفهم أعمق لطبيعة الحياة داخل المسكن واستكشاف قيمته ووظيفته لدى كل من الساكن الشاوي والصحراوي؛ ثم المقابلة المفتوحة بشكليها الفردي والجماعي مع عينة قصدية من 20 شخصا بالتساوي، منهم 6 مقابلات فردية في كلا المجتمعين، مع التركيز في اختيار العينة على عامل العمر والمعرفة والخبرة في رمزية وثقافة بناء المسكن التقليدي، كما أن هذه العينة لا تزال تستخدم المسكن التقليدي وتمارس حياتها اليومية فيه. تمّ جمع البيانات إجرائيا عن طريق التصوير والتدوين باستخدام الهاتف المحمول؛ ثم تحليلها ومقاربتها نظريا بالاعتماد على البنائية الوظيفية لتفسير الاستجابة الثقافية والاجتماعية للدوافع البيولوجية والطبيعية لتولد نموذج المسكن في المجتمعين، والعلاقة الوظيفية التي يؤديها المسكن ضمن الحياة الاجتماعية، ثم التأويلية الرمزية لمقاربة الخطاب الاجتماعي لدلالات الرموز الثقافية للمجتمع الشاوي والصحراوي بين اختلافها وتشابهها.

1. المسكن أنثروبولوجيا:

احتل المسكن دورا هاما في الدراسات الأنثروبولوجية، كونه يجمع بين الجانب الثقافي والمادي ويعدّ مكانا تفاعليا لأفراد المجتمع، بالتالي يستوجب تقديم تعريف لهذا المفهوم وتبيان مكانته كموضوع أنثروبولوجي في التراث الإنساسي.

1.1. مفهوم المسكن:

يمثل المسكن بالنسبة للإنسان حالة من الأمان والمأوى، ومصدرا للهروب من الصراعات الاجتماعية والطبقية المقيتة التي يتعرض لها الفرد في حياته اليومية، إذ يعبر عن حالة جنينية تجتاح الفرد وتشعره بالأمومة والدفء، فيشير إليه الأنثروبولوجي "عبد القادر القصير" على أنه: "البناء الذي يأوي إليه الإنسان ويشتمل هذا البناء على الضروريات، التسهيلات، التجهيزات، الأدوات والأجهزة التي يحتاجها أو يرغب فيها الفرد لضمان تحقيق الصحة الطبيعية والعقلية والسعادة الاجتماعية له ولأسرته" (سوالمية، 2014: 108). فالمسكن التقليدي يخلو من مظاهر الترف البارزة في العمارة المعاصرة، بل ينحاز نحو أداء وظيفة بيولوجية تليها استجابة ثقافية للإنسان؛ فيعرف بأنه وحدة مركّبة من الأفراد وأدواتهم العملية والتعبيرية، ومكان يأوي فيه الإنسان، وفضاء لتخزين المحاصيل والغلال والزاد (محمد أشرف، 2018: 194)، وفي نفس الوقت يذهب المسكن لإشباع حاجة الراحة للإنسان، الذي لا يكتفي بإيجاد مأوى، بل يحاول ترك بصمته الثقافية إزاء ذلك المأوى باعتباره حيوان ثقافي، ليشكل في النهاية المسكن الذي يمكّن الجسم من الحصول على القدر اللازم من الراحة والتوافق البدني والنفسي (المغازي، 2006: 84).

يأتي المسكن ليحقق السكون للفرد ويمكن للأفراد اعتبار العديد من الأماكن والفضاءات كمسكن له إن حقّقت له فعل السكون، فهو بذلك كل دار حضري من حجر أو آجر أو خشب، وكل خيمة بدوية من جلد أو صوف أو وبر (بوزيد، 2014: 257)، لكن ما يجعل الفرد متمسكا بها هو شعور الانتماء والهوية والألفة التي ينسجها الفرد بينه وبين هذا المكان، وبهذا يتعدى المسكن الوجه المعماري الظاهر، ليصبح وحدة رمزية تنتمي لنظام رمزي يعطي لها معنى (صولة، 2005: 02)، فالمسكن في سياق المجتمع التقليدي هو حقل من السلوكات الرمزية التي تنشأ وتتوالد في بناء متنام متواز مع بناء المنزل منذ لحظة التأسيس، ما يجعله نابضا بالمعاني والخطابات الاجتماعية.

2.1. أنثروبولوجيا المنزل- دراسة المسكن أنثروبولوجيا:

تعددت الدراسات الأنثروبولوجية والحضرية لموضوع العمارة والمسكن، فيعد الأنثروبولوجي "لويد وارنر" من الباحثين الأوائل لموضوع العمارة داخل الأحياء الأمريكية بالاعتماد على المنهج الأنثروبولوجي (نجار، عبد اللاوي، 2023: 557)، ثم الأنثروبولوجي "وليام فونت" في دراسته المشهورة لناصية الشارع والتشييد الحضري للأحياء والعمارات وتفاعل الأفراد معها (نجار، عبد اللاوي، 2023: 557). وقد وجّه العديد من الأنثروبولوجيين

دراساتهم نحو هذا الفضاء واقتربوا منه خارجيا باعتبار المنزل عنصرا مستقلا خارج النظام الاجتماعي بحيث يخضع شكله وتنظيمه للقوى الاجتماعية والثقافية والحتميات المادية (Watin, 1991: 09)، في حين رآه آخرون من الداخل كونه عنصرا مكملا للنسق الاجتماعي ووحدة أساسية في استقرار البناء. فالمسكن موضوع أنثروبولوجي حيوي حضر في الفكر الماركسي باعتباره مكان تجري فيه الممارسات الاجتماعية والاقتصادية (Watin, 1991: 10)؛ وعند "بارت" فالعمارة هي "مجال للتواصل وخطاب في اللغة" (شيا، 2005: 94)، وفي الفكر الدوركايمي اعتبر المسكن الركيزة المادية الذي يساهم في تطور المجتمعات من خلال تطوره وتحوله لحواضر ومدن ويطرح عدة مفاهيم كالتضامن العضوي والميكانيكي وتقسيم العمل (Watin, 1991: 10). واعتمد في الفكر الوظيفي البنائي باعتباره وحدة وظيفية تعمل على تلبية الحاجات الفيزيولوجية للإنسان ويؤدي وظيفة علائقية بين مختلف أنساق البناء الاجتماعي؛ في حين نظر إليه الفكر الستروسي البنيوي كونه يكشف عن بنية عميقة من التجذر والتشبث ومقاومة الطبيعة وميزان مهم للتبادل والمصاهرة، ويطرح عدة ثنائيات متناقضة بين الصيف والشتاء وبين الداخل والخارج...إلخ، وهو ما ذهب إليه "بورديو" في دراسته للمسكن القبائلي بنيويا.

وضع الأنثروبولوجي الوظيفي "مارسل موس" في كتابه "Manuel d'ethnographie" مجموعة مبادئ أساسية للتعامل مع المسكن أنثروبولوجيا (Mauss, 1926 : 73.78) ، إذ يستوجب عند التعامل مع دراسة المسكن أنثروبولوجيا التركيز على المواد المستخدمة في عملية البناء وطريقة توظيفها والألوان المستعملة في الصباغة لما لها من دلالاتها؛ وبما أن المسكن يخلق فضاءات حضرية فإنه من المهم فهم رمزية المنازل من خلال قراءة تأويلية "للواجهات ولون الجدران، رصيف الشارع ومختلف العلامات الحضرية التي يتجذر بها وينتصر للهوية في المجتمع المحلي" (Choay, 2006: 97). وقدم قام المهندس المصري "حسن فتحي" بنمذجة ذلك في العديد من المشاريع التي حافظ فيها على مواد البناء المحلية التقليدية. كما يستوجب البحث في نمط البناء وطريقته الفردية والجماعية التي تعكس وظيفة علائقية بمختلف الأنظمة الاجتماعية، وتعكس تأويلات ثقافية عن الحياة الاجتماعية. ثم التركيز على الناحية الشكلية -الداخلية و الخارجية- والوظيفية للمسكن وعلاقتها بالثقافة الشعبية، فكلها تفاصيل تساعد على فهم أعمق للثقافة والجانب الاجتماعي. وقد أشار "أموس رابوبورت" في كتابه "أنثروبولوجيا المنزل" (خليفة، 2003: 19) أن المسكن هو نتيجة لعوامل ومحددات كثيرة (الدين، المعتقدات الشعبية، الأعراف الاجتماعية، ممارسات طقوسية) تساهم في عملية بنائه وتقسيمه المجالي وركز على المحددات السوسيوثقافية، وهذا حسبه ما أهمله الباحثون الأوائل.

في حين يوضح الأنثروبولوجي "آموس رابوبورت- Amos Rapoport" أن المنزل يمثل موضوع أنثروبولوجي كونه تتشابك فيه عدة جوانب إنسانية، ويعكس ثقافة غير متناهية من الدلالات والمعاني التي يمكن دراستها ومحاولة فهمها وتفسيرها، فلا يكتف الباحث بمقاربة المسكن كوحدة هامشية لنظام قرابي فقط، بل يلتقي فيها الاجتماعي، الثقافي، الرمزي، الاقتصادي، القرابي، الديني، التاريخي وحتى النظام الإيكولوجي ما يجعل منه وحدة تحليل مهمة جدا في الدراسات الأنثروبولوجية، حيث يقول نفس الباحث أنه لإدراك العلاقة بين الثقافة وهيكل المسكن: "علينا أن نقيس أنفسنا فكريا مع جميع البشر حتى لو كانوا بدائيين أو قدماء أو غير مهمين بالنسبة

لنا... فهذه الطريقة توفر كمية كبيرة من المتغيرات في الثقافات المختلفة...و معرفة أكبر بتنوع الحلول الممكنة" (Rapoport, 1972: 17).

فالعامل البيئي والبيولوجي يقدم لنا عدة موضوعات حول المسكن كمواد البناء والتكنولوجيا والموقع، والحتمية الفيزيائية، في حين يوضح العامل الاجتماعي والثقافي البرنامج الوظيفي للأفراد كأسلوب الحياة والاحتياجات الأساسية للأفراد وعلاقتهم بالمنزل (Rapoport, 1969: 19)، والقيود المجتمعية المتحكمة في بنائه، وكذلك مواضيع التغير والثبات والشكل والقوى المتحكمة في عملية الإسكان. فيبرز العامل التاريخي مثلا التطورات الحاصلة على التصورات الثقافية والبنية الخارجية للمسكن، أما العامل القرابي فهو عامل حاسم جدا في توضيح مختلف العلاقات التراتبية التي تظهر داخل المسكن، وكيف يمثل المسكن عامل أمان في التبادل والمصاهرة...إلخ.

2. المسكن الشاوي بين الشكل الهندسي والدلالات الأنثروبولوجية:

تتراوح أنثروبولوجية المسكن الشاوي من الثقافة المادية التي تحمل معها جملة من المعاني والممارسات والتقنيات إلى الثقافة اللامادية المشبعة بالرموز والدلالات والمعارف والقيم، والتي تكون محصلة مدركات تاريخية وبيئية وتصورية ثقافية واقتصادية، حيث تتقاطع مع الفضاء السكني الشاوي لتقدم وحدة مادية ثقافية تبرز هيمنة وتفوق الفرد الشاوي على الطبيعة في عدة نواحي. إذ تتميز جغرافية منطقة الوادي الأبيض الواقعة في الأوراس جنوب ولاية باتنة بطبيعة جبلية قاسية وباردة شتاء وحارة جافة صيفا؛ عرف الشاوية تاريخيا الزراعة وتربية الحيوانات وتلقوا مفاهيم عن التشجير (Gaudry, 1929: p08)، و مارسوا التجارة عبر نظام العزابة جنوبا في الشتاء وشمالا في فصل الصيف، وقد تدوم لأيام وأسابيع لتوفير الحاجيات الأساسية، ما يجعله في صراع دائم مع الطبيعة.

1.2. التقسيم المجالي في المسكن الشاوي:

يتميز المسكن الشاوي بنمط معين من الهندسة المعمارية بشكله الذي يجمع بين البساطة وبين محاولة التكيف مع التحديات الإيكولوجية والاجتماعية للمنطقة (أنظر الشكل رقم 01)، فالشاوي يحاكي المسكن بالمدفن وببطن الأم وذلك على إثر ما يذكره "دوران" أن المسكن على صلة وثيقة بالمدفن الأمومي سواء تحول المدفن إلى مغارة أو بني على شكل مسكن (سوالمية، 2018: 100). وينقسم المعمار في الأوراس إلى منازل وقلاع ومخازن، وتتميز بعدم الاختلاف نسبيا (عساسي، الطاهر، 2017: 101)، ولكل منها وظيفتها وأهميتها في النسيج الاجتماعي، وتركيزنا في هذه الدراسة على المسكن المعيشي بمجاله الداخلي والخارجي الذي يجمع فيه الفرد الشاوي بين أبعاد قيمية و هوياتية وثقافية، وإشباع لحاجاته البيولوجية والفسيولوجية.

إن الشكل الخارجي للمسكن عبارة عن مستطيل وكأنه يشبه حذوة حصان بحيث تضم كل وحدة ساحة أو فناء أمامها (Adjali, 1986: 273)، تبنى جدرانه من الحجارة المجمّعة من الجبال، كون منطقة الوادي الأبيض جبلية، ويبنى عن طريق الرجال وبدون طوابق (أنظر الشكل رقم 02)، وأما في منطقة "غوفي" جنوب الوادي فقد

استغل السكان الكهوف كجدران خارجية يسند إليها المسكن، في محاولة منهم للاندماج مع الطبيعة والتوافق معها، حيث لا يتجاوز باب المسكن (Tmasext) طول 1.70 متر كأقصى حد، ما يجبر الفرد على الانحناء عند الدخول، ويصنع يدويا من الخشب. تنتظم المساكن وفق مبدأ التنظيم القرابي، في حين يكسر هذا المبدأ في منطقة منعة، أين يميل فيه السكان للبناء فوق بعضهم البعض في هيكلة هندسية معقدة تدعى "هاقليعث" أي "دشرة" (أنظر الشكل رقم 03) وتكون محاطة بسور وبابين لحراستها، حيث وصفتها الأنثروبولوجية "ماتيا قودري" أنها "دوما ما تكون معلقة على الحواف أو قمة ارتفاع معزول ويصعب الاقتراب منها (Gaudry, 1929: p02)؛ وهو نمط شبيه نوعا ما بالمسكن القبائلي الذي تبنى فيه المساكن فوق بعضها البعض لاستغلال المساحة القليلة الصالحة للسكن، إذ يقول المبحوث (رقم 01) عن هذا التصميم: "نبني المنازل ملتصقة وفي شكل قلعة لحماية بعضنا البعض" فهي إذا نظام دفاعي وأمني مع شوارع ضيقة. أما شكل النوافذ فهي صغيرة تأخذ شكلا مربعا أو مستطيلا أو سداسيا يرجعه البعض إلى أنه من رواسب الديانة المسيحية في الأوراس، أما وظيفيا فأخذت هذا الشكل لتوفير الإضاءة للمسكن إضافة لتوفير الأمن له، إذ يصعب الدخول منها لشخص بالغ ولتوفير حرمة وخصوصية للمسكن بمنع اختلاس النظر لداخله.

تتموقع هذه المنازل في جهة الغرب لتقابل شروق الشمس، فهي بمثابة محدد للزمن وشروقها إشارة للسكان لبدأ الأعمال اليومية والنشاط الفلاحي المميّز للمنطقة، وكذلك تكون أبوابها موجهة ناحية القبلة لقدسيتها في الدين الإسلامي السائد في المجتمع الشاوي بقول المبحوث (رقم 01) "تفتح الأبواب ناحية الشرق لاستقبال شمس الصباح ولكونها قبلة، ولكن أحيانا نضع بابا ثانيا في أحد جوانب المنزل للتهوية"؛ أما السقف فيكون مصنوعا من أوتاد الصنوبر الكبيرة التي تصل بين جدارين تدعى باللغة المحلية "إيسكثرن "isketren - لتعاكسها في الاتجاه أوتاد أخرى أقل عرضا منها، مصنوعة من أغصان الصنوبر أو العرعار، ويرتكز السطح على أوتاد عمودية تغرس في وسط المسكن متصلة "بإيسكثرن" يطلق عليها محليا "ثيقيذا-tigida"، وتستخدم داخليا في الإتكاء والراحة أو وتعلّق فيها بعض الأدوات المنزلية لتوفير مساحة أرضية فارغة للأفراد، كاستجابة لبعض الممارسات في الحياة المعيشية للفرد .

أما التقسيم الداخلي للمسكن يتأثر بمساحة المسكن والإمكانيات المادية للفرد وحجم العائلة، وعلى العموم فالتقسيم المجالي الداخلي يبدأ من الفناء يدعى محلّيا "أسقيف" وهو حسب المبحوث رقم (02): "مساحة صغيرة تقام فيها مختلف نشاطات الحياة اليومية كالنسج، استقبال الضيوف، تقديم الأكل، الغسيل، الأفراح"، وتفتح إليه عدة غرف كغرفة الأزواج، الأبناء، المطبخ وغرفة "المخزن" في المنازل ذات العائلة الممتدة؛ أو قد تكون عبارة عن غرفة واحدة لغرفتين في حالة عائلة نووية، فعند الدخول من عتبة الباب تظهر مساحة واحدة بدون أي فصل بين الغرف، هذا راجع لقلة مساحة البناء أو الحالة المعيشية الصعبة، ليصبح المسكن بمثابة مكان للإيواء، بالتالي تلجأ المرأة لتقسيم المجال الداخلي حسب ما تقتضيه الممارسة المعيشية، فيوضع ركن فيه موقد "الكانون" و "شميني" للطهي وللتدفئة شتاء (أنظر الشكل رقم 04)، أما وسط المنزل يستغل في الأكل أو النسج وباقي الأعمال المنزلية، ثم ركنين آخرين مخصّصين لاستقبال الضيوف والنوم حيث تنام العائلة بشكل جماعي في

نفس المساحة، وفي الركن الرابع كان يخصص للماشية والدواجن، إذ يؤكد المبحوث (رقم 2) أن سبب ذلك هو "حمايتها من السرقة"، أما حاليا فالحيوانات يوجد لديها مجالها الخاص خارج المسكن.

2.2. المسكن فضاء ثقافي و اجتماعي:

عند الحديث عن المسكن واجتماعيته وثقافته فهذا يستوجب فهم علاقة التفاعل القائمة بين المسكن والأفراد من داخل العائلة الواحدة، أو من خلال التمثلات الخارجية للأفراد، ما يعطي قيمة أكبر للمسكن من مجرد بناء معماري، فمن المهم التحلي بالدقة اللازمة لفهم خطاب الأفراد مع كل لمسة له داخل وخارج مسكنه، مرسخا تلك الوحدة العضوية المكونة لصورة مركب متماسك وغير جامد (باين، 2020: 131). و من أهم هذه الدلالات المتوصل إليها في الدراسة هي كالتالي:

1.2.2. العتبة و طقس العبور:

إن الدخول للمسكن يعني عملية عبور من مرحلة لمرحلة ومن وضع لوضع، وهذ الانتقال تصاحبه مجموعة من الطقوس المعبرة عن أهميته والمختلفة من مجتمع لآخر، إذ يراها الأنثروبولوجي "مارتن سيغالان" أنها: "مجموعة حركات سلوكية متكررة، يتفق عليها أفراد المجتمع، وتكون على أشكال وأنواع مختلفة، تتناسب والغاية التي دفعت الفاعل الاجتماعي أو الجماعة للقيام بها" (فخار، 2018: 03).

هذا يحيلنا لفكرة انتقال الفرد لمسكن جديد إما للتخلي من مسكنه القديم أو لزواجه ورغبته في العيش في مسكن منفرد، وقليلا ما يحدث ذلك أن تظهر مساكن لعائلة نووية، فأغلبها تسكنها عائلات ممتدة؛ فهذا الانتفال إذا يجب أن يمر عبر طقوس العبور، فالدخول لمسكن آخر يستوجب الحصول على استرضاء الأرواح التي تسكنه، إذ يتفق الشاوية أن المنزل يتضمن أرواحا خفية تعيش معها وجب استرضاؤها أو التغلب عليها إن أمكن، وفي مقابل ذلك بعد الانتهاء من تجهيز المسكن في شكله الخام تقام فيه وليمة بطقوس خاصة لردّ العين الحاسدة، إذ يضيف المبحوث (رقم 03) أن: "إبقاء المسكن في ظلمة وإطالة عدم السكن فيه قد يجلب أرواحا شريرة"، مما يستدعي فتح البيت باستمرار لإدخال الإضاءة إليه كون الظلام نذير شؤم والضوء فأل خير، بقولهم في المثل الشعبي " ruḥ rabba attiḍewwa deg udem-nnek- روح ربي اضويها في وجهك" ، وتبدأ طقوس العبور بذبح الرجال للشاة في وسط المسكن، ثم تقوم النساء بحرق رأس الشاة و طهيه ويدعى "أزلوف – azelluf"، في محاولة للتقرب من هذه الأرواح، ثم يليها وضع الحنة على عتبة الباب بعد ترديد اسم الله ثلاثا "بسم الله، بسم الله، بسم الله"؛ وبعد عدة أيام من ذلك تنتقل الأسرة إلى المنزل بكل عتادها المادي ومخزونها الثقافي.

ترتبط العتبة بطقوس العبور بشكل كبير؛ حيث تكون عتبة المسكن مرتفعة دوما من خلال فجوة في الواجهة إلى الجزء الداخلي من المسكن (Jemma-gouzon, 1989 : 116)، حيث يمثل الباب نقطة وصول أو انطلاق (أنظر الشكل رقم 03)، كما لو أن كل شيء يتم من باب إلى باب (باسكال، 2017: 328)، تقول المبحوثة (رقم 04) أنه: "عند دخول العروس من عتبة الباب تقدم لها الحنّة لتدوس عليها وتمر عبر العتبة لتعلن عن دخولها لمنزلها الجديد، أو يقدم لها صحن فيه "السّمن" تقوم العروس بوضع قطعة منه على عتبة الباب

بإصبعها اليمين"، لتعلن بذلك عن نفسها كعضو جديد في العائلة، مما يوضح انتقالها من فترة العزوبية إلى الزوجية، ومن مسكن أبيها لمسكن زوجها، وتقبّل عائلة الزوج لها.

2.2.2. إنشاء نظام دفاع لحماية المسكن:

لتوفير حماية أكبر للمنزل يصنع الباب من الخشب القوي والسميك، ثم يلفّ بسلسة حديدية ويعلق في الباب قطعة حديدية تأخذ شكل دائري أو يد اسمها "النح"، وتستعمل لطرق الباب من قبل الضيوف، خاصة من هو غير مألوف للعائلة أو عابر سبيل، "فالنّح" رمز ثقافي مهم في المسكن الشاوي ودلالة على الحرمة، وتعني وجود غريب عند الباب ما من شأنه توفير حماية للمرأة داخل المسكن لتغطية جسدها، أما الضيوف المعتادين فلا يطرقون على "النّح"؛ فالمرأة شرف المسكن وحرمته عند الشاوية. فالشرف حسب "بورديو" مسألة أهم من نفس الشخص فقد يضحي بروحه في سبيل الحفاظ على شرفه. كما قد تترك نهارا أبواب المنازل مفتوحة دون خوف من دخول أحد إليها أو سرقتها، فموضوع الثقة بالجار يشكل حيزا مهما في ثقافة الجيرة عند الشاوية.

ثم تلي الحماية الواقعية حماية ميتافيزيقية –إن صحّ القول- وتكون هذه الحماية من العين والحسد، ذلك بتعليق عجلة أو قرون الشاة أو الأبقار في عدة أماكن من سطح المنزل، فعلى حدّ قول المبحوث (رقم 05): "نحن نقوم بتعليق قرون الماشية لإبعاد العين وحماية المنزل من العين"، إذ تعد الحيوانات بالنسبة إليهم رمزا للخير والرزق وطاردة للجن، كونها قادرة على استشعارها أكثر من الإنسان، وبالتالي فالشاة والأبقار أكثر الحيوانات يتعامل معها الفرد ويستأنسها، والاحتفاظ بجزء دائم منها من شأنه طرد كل ما يتربّص بأمن المنزل من روح شريرة أو عين حاسدة.

3.2.2. المسألة الاجتماعية:

تظهر قيم التعاون والتضامن الاجتماعي منذ بناء المسكن الذي يقوم على أساس قيمة تبادلية والمتمثلة في وقت العمل اللازم لبناء المنزل اجتماعيا (إدجار، سيدجويك، 2014: 497)، حيث يجتمع أفراد القرية ويعملون في جو تعاوني مشترك، بحيث يميلون للاعتماد على مبدأ تقسيم العمل حسب ما أفادنا به المبحوث رقم (06): "عند بناء المسكن لا بد من -تويزة- لذلك، بتجمع العائلة والجيران، ثم نقوم بتقسيم العمل بيننا لتسريع بنائه"، فتويزة دلالة على روح التعاون والتضامن في المجتمع الشاوي؛ في حين يقوم الرجال بتقسيم المهام بينهم لتنظيم عملية البناء، تقوم النساء بتقسيم المهام بين بعضهن البعض لتحضير مختلف الأكلات التقليدية للرجال، وهي عملية تنظمها ربّة البيت أو أحد كبار النساء في العائلة.

ترتبط الأسرة الشاوية في المسكن بكبير العائلة، كون فعل التساكن مرهون بالأكبر سنا، فهو المسؤول عن فرض النظام والضبط داخل المسكن، ثم تتفرع العلاقات القرابية بين تفاعل المرأة مع الصغار، والرجال مع الأولاد الأكبر سنا، ثم هناك علاقات أخرى تنشأ بين الزوجين، أو الزوجة والحماة، فتتسم هذه العلاقات بالنصح، الإرشاد، التعليم، التعاون والتكافل. وبما أن المسكن يدخل ضمن النشاطات اليومية للفرد الشاوي، فإنه يتوجب تقسيم العمل بين أفراده للسير الحسن لهذه المؤسسة، أو عل حد تعبير "بيير بورديو" فالمسكن:

"عالم مصغر تم تنظيمه وفقا لنفس التعارضات والمتماثلات التي تنظم الكون" (Bourdieu, 2000: 71)، فالمسكن الشاوي إذا يقف على ذلك التعارض والتكامل الذي يحدث بين ثنائية الداخل/الخارج، الكبير/الصغير، الذكر/الأنثى والتي تتم وفق نظام متعارف متماسك يساعد على استقرار هذا المكان الوجودي، فالمرأة مسؤولة عن الجزء الداخلي من هذا الفضاء من غسيل وطبخ وتنظيف...إلخ، أما الرجل فهو مسؤول عن الأعمال الخارجية بتوفير مختلف حاجيات عائلته.

يلجأ السكان لفتح أبواب مساكنهم للجار في حالة وجود فرح أو حزن لاستيعاب الضيوف؛ كما يعد المسكن فضاء للتسامر والترفيه بعقد تجمعات يومية عند أحد الأفراد، في جو يساهم على تقوية الروابط الأسرية وتعزيز القرابة والجيرة. بحيث تعد القهوة علامة بارزة في احترام الضيف وتقديره، أو الرفع من مكانته عند المضيف له، فهي أول ما يطلب وأول ما يقدّم، وإن غابت القهوة عن مائدة الضيافة فيقال عنهم بالشاوية: "خلدغ فلان اويدييش آكذ القهوة" بمعنى (ذهبت لفلان ولم يكرمني حتى فنجان قهوة)، ما يعني وصمة عار وسم بها هذا المسكن، حيث أن العائلة تعرف بالمسكن فيقال "ثادارث ن فلان" أي (منزل فلان- نسبة لاسم العائلة)، إذ أن قيمتها الثقافية والاجتماعية تفوق قيمتها المادية، فيعكس المسكن بشكل أو بآخر ضعف الحالة الاقتصادية والاجتماعية لصاحبه، كما أن ما يدور داخل هذا المجال الصغير قد يرفع مكانة صاحبه الاجتماعية أو يصاب بوصم اجتماعي.

3.2. ثقافة الاستهلاك عند العائلة الشاوية من خلال المسكن:

تظهر الممارسة الاقتصادية من خلال الإنتاج والاستهلاك؛ في المجتمع الشاوي التقليدي لا تتم عملية الإنتاج إلا مقابل الاستهلاك الذاتي، أي استهلاك تلك السلع والمنتجات من قبل الوحدات الاقتصادية المشكلة للأسرة الشاوية (ذبيان، 1990: 45)، فظاهرة الاستهلاك حسب "بودريار" هي: "نمط علائقي فعال، ليس نمط علاقات بالأغراض وحسب بل بالجماعة وبالعالم، نمط فعالية مبرمجة ورد إجمالي يتأسس عليه كل نظامنا الثقافي" (دحماني، 2022: 334). إذ يملك المجتمع الشاوي ثقافته الاستهلاكية المختلفة عن الثقافة الاستهلاكية المعاصرة، بين الاستهلاك المباشر أو غير المباشر –التخزين أو تدوير السلع ثم استهلاكها-.

يتعلق الاستهلاك المباشر بكل ما هو مخصص للأكل إما من لحوم أو منتجات فلاحية، وغير المباشرة تتعلق بما يمكن تخزينه كالحبوب والعسل، واللحوم والفواكه المجففة، إلا أن ما يهم في ثقافة الاستهلاك هو قدرة المرأة على الوقوف على هذه العملية وتنظيمها، وتخزين ما يعنى بتحقيق العادات والطقوس المختلفة الخاصة بالمجتمع، كالأعياد، الوعدة، الزواج، والمحددة وفق محددات ثقافية واجتماعية معروفة لدى كل عائلة ومسكن.

3. البعد الأنثروبولوجي لبنية المسكن الصحراوي:

يتمتع المسكن الصحراوي بخاصية ايكولوجية و سوسيوثقافية ساهمت في التشكيل العمراني لفضاءاته العامة والخاصة، فالمسكن التقليدي عموما يخضع إلى عرف محلي كمصدر للتشريع (كواشي، عطابي، 2024:

273) ولفقه عمران شعبي خاص يساهم في تنظيم البناء وترجمة الخطاب العمراني، ويترجم ذلك مثلا هندسة الأحياء القديمة وشوارعها، سواء من ناحية العرض والطول والتعرّجات التي تحفظ حرمة وخصوصية الساكن، وقيم احترام الجار (انظر الشكل رقم 07)، حيث أن الساكن لا يتعدى على علو مسكن جاره، لحفظ خصوصية وحرمة الجار.

ظهرت القرى والعمارة في وادي سوف تاريخيا حسب الباحث "حسونه عبد العزيز" على الحواف الجنوبية للشطوط التي كانت مصبات وادي سوف القديم (حسونه، 2021: 405)، ولا تزال عديد التجمعات السكانية ترتكز في هذه المنطقة كون المجتمع السوفي هو مجتمع فلاحي مستقر، يعتمد بشكل كبير على التجارة والفلاحة خاصة فلاحة التمور، فمن المهم التواجد قرب التجمعات المائية، كما أن المنطقة ذات خصائص طبيعية قاسية وحرارة عالية، سعى من خلالها الإنسان للتكيف معها، حيث نلمس تأثير البيئة على المنتوجات الثقافية لكل عناصر الحياة للأفراد الساكنة في الصحراء، وهذا التأثير المتبادل أنتج مركبا ثقافيا يعبر عن تلك البيئة من خلال استغلاله للعناصر البيئية المحيطة وهو المسكن الصحراوي الذي ينسج بهندسة شعبية محلية.

1.3. التصورات المرافقة لتقسيم المجال في المسكن الصحراوي:

لكل ثقافة تصورها الخاص لبنية الفضاء السكني الداخلي والخارجي، فكل معالجة معمارية هي تعبير صريح عن قيم وعادات اجتماعية يجسدها الساكن في هيكلة المجال الداخلي والخارجي. فالشكل الخارجي للمكسن عبارة عن مستطيل يمتد بناؤه على مساحة واسعة مقارنة بالمسكن الشاوي (أنظر الشكل رقم 05)، حيث تكون الجدران بنفس العلو وتبنى من المواد المنتشرة في الطبيعة الصحراوية بنوع محدد من الأحجار، ثم يتم صبغها في نهاية البناء، عكس المسكن الشاوي الذي تبقى الأحجار بارزة ولا يتم تغطيتها، وهذا ما يعطي قيمة جمالية أكبر للمسكن السوفي؛ ثم أن الملاحظ لمورفولوجيته سوف ينتبه لذلك الشكل الدائري المنتشر فوق مختلف المنازل التقليدية والتي تدعى "القبّة" (انظر الشكل رقم 06)، وهي سمة مميزة جدا للمسكن السوفي، وتعتبر رمزا عمرانيا ثقافيا تميّز الشكل الخارجي للمسكن التقليدي، بحيث تعبر عن خصوصية بصرية وثقافية لمدينة الوادي التي تُعرف بمدينة الف قبة وقبة ، إذ يعد شكل القبة وظيفيا جدا في عكس أشعة الشمس عن سطح المنزل، هذا لتفادي ارتفاع درجة الحرارة على ساكنيه.

يطلق على المسكن السوفي محليا "الحوش" -عكس الشاوية فالحوش هو "الفناء" والمسكن "ثادّارث Taddart"-. حيث يبدأ المجال الداخل للمسكن السوفي بمركزية الفناء ويدعى محليا "وسط الحوش" ذلك الفضاء الواسع في وسط المنزل الذي تحيط به الحجرات والجدران (الجباري، 2016: 28) يقوم بوظيفة التهوية والإضاءة للمسكن التقليدي ، وحتى تخفيض درجة الحرارة في أيام القيظ "وقد ثبت بالتجربة أن درجة الحرارة داخل الفناء تنخفض درجتين على الدرجة السائدة في المنطقة" (الجباري، 2016: 28). إذ يعدّ جزءا أساسيا وقطعة بنائية وظيفية في المنازل (انظر الشكل رقم 06)، وعلى حسب ما أخبرتني به المبحوثة رقم (07):"وسط الحوش يتشكل بعد البناء كآخر عنصر في المسكن"، فهو ترجمة لعلاقات اجتماعية وثقافية، تظهر وظيفته

خلال فصل الصيف كفضاء اجتماعي مشحون بالعواطف والعلاقات الأسرية للعائلة الكبيرة باعتباره متنفس للعنصر النسوي خاصة، فتقضي فيه المرأة مختلف شغلها بعيدة عن مرأى الناس وتعقد فيه سهرات وتجمعات كونه مساحة مكشوفة على الطبيعة ومدارية لهم في تجسيد لقيمة الحرمة التي يتمتع بها المجتمع السوفي.

يراعي الفرد السوفي قيمة الحرمة أيضا داخل مسكنه، من خلال التفاصيل العمرانية في هندسة المسكن الداخلي بوضع جدران سميكة لعدم سماع صوت المرأة، ويقاس طول الباب حسب قامة الفرد، ونوافذ الغرف المطلة على وسط الحوش تكون ذات حجم صغير لإدخال الضوء ومنع أي إمكانية لاختلاس النظر داخلها، لضمان قيمة الخصوصية لأفراد العائلة. والعجيب في المسكن السوفي هو كيفية تخطيط حجم الغرف، حيث تحسب مساحتها عبر تمدّد أحدهم أرضا ليكون طوله بمثابة قياسات لأبعاد الغرفة، وارتفاعها يكون على قدر طول الشخص ولا تتجاوز 4 أذرع في المتوسط (حسونه، 2019: 163)، في حين يكون ارتفاع الباب في المسكن التقليدي أقل من مترين ما يحتم على الشخص الانحناء أثناء الدخول، وهذا التصميم هو محصلة تقنية التسقيف والقبة السوفية (حسونه، 2019: 163).

تظهر الغرف مرتبّة بشكل تراتبي بحيث تكون دار الضيافة أقرب للباب الخارجي الذي يفتح للداخل لا للخارج، ثم غرفة المخزن فالمطبخ وغرف النوم، أي إبعاد أفراد العائلة عن الضيوف وإبعاد الضيف عن حرمة المسكن، وكل غرفة تنقسم لقسمين: قسم خارجي يسمى (وجه الدار)، وقسم داخلي يسمى (المقصورة)، أما غرفة الماشية فتكون منفصلة وفي أغلب الأحيان خارج المنزل، فمثلا غرفة المطبخ ذات تصميم تقليدي عبر وضع "شميني" في ركن مقابل يخصص للطهي وإخراج الدخان (انظر الشكل رقم 08)، وترتّب الأواني القليلة قربه في مساحة صغيرة لها؛ وتكون نوافذ الغرف المطلة على الحوش صغيرة. كما يعمل الخط المنكسر كترجمة لقيمة الحرمة والخصوصية للعائلة، خاصة حماية المرأة التي تعد شرف الرجل السوفي، بإبعاد أماكن تواجدها داخل المسكن عن نظر وسمع أي دخيل، إذ يعد المسكن مساحتها الخاصة فلا تخرج منه إلا برفقة الرجل، ويمنع عليها الوقوف في الشوارع...إلخ؛ وكل ترجمة لنسق قيمي تعبر بالضرورة عن فهم طريقة تمثّل المجتمع السوفي للمسكن

2.3. الرو ابط الرمزية التي تنسجها المجتمعات بين العمارة و مجمل معتقداتها:

تتجلى هذه الروابط في الأساطير المتعلقة بالمسكن السوفي والطقوس الاسترضائية أثناء عملية بناء المسكن، من خلال تقديم القربان وطقوس الذبح والمعتقدات الشعبية والاعتقاد بوجود مخلوقات تتقاسم معهم الفضاء السكني وجب على الساكن إرضاؤها والتعايش معها، ومن هذه الممارسات: أن الساكنين في عيد الأضحى يضع عظما من فكّ الكبش الذي يذبحه في عيد الاضحى في ركن مظلم وخاص في المطبخ، فحسب قول المبحوث رقم(8): "نضع جزء من عظم الرأس في آخر ركن مظلم في المطبخ لتأتي الأشخاص من عالم آخر لتأكله وتشبع معنا "، اعتقادا منهم أنهم يتقاسمون تلك الأرواح الأكل والشرب و تتموضع في الظلام لا في الضوء. كما تشير المبحوثة رقم(7): أنه: "عند التخطيط للمسكن تقوم المرأة بدفن خاتم من الفضة في أساس المسكن عند المباشرة في عملية البناء"، يحمل هذا الطقس بعدا أنثويا ويبرز مكانة المرأة في ذلك المسكن، فمن خلال قيام

المرأة بدفن الخاتم بنفسها ينظر لها أنها هي من سيزيد بركة المسكن، إذ يقوم عليها البيت ويعنى بها في ثقافة مجتمع وادي سوف.

كما أن الدّم أيضا عنصر ذو قداسة عالية عند أهل السكن، إذ أن سيلان الدم على عتبة الدار عند الذبح دليل على الدخول في العالم الخاص بالأرواح والمخلوقات المحتلّة للمجال السكني، إذ يقول المبحوث رقم (9): "الأرواح التي تسكن المسكن معنا نسموها –أمالين الحوش –" أي هذه الأرواح هي أصحب المسكن ولا بد من تقاسم المجال معهم عن طريق سيلان الدم؛ كما يقوم الأفراد بتعليق قرون الحيوانات في سطح المنزل أو عجلة سوداء مثل المجتمع الشاوي، والتي حدثنا المبحوث رقم (09) حولها كونها "عادة تمارس لإبعاد العين وطرد الأرواح الشرير" كنوع لحماية المسكن من مختلف الشرور، وهذا ما ذهب إليه "بيار بورديو" عند دراسته للبيت القبائلي الذي يراه عبارة عن ثنائيات متقابلة وفق منظور بنيوي تحمل الجانب المقدس والمدنس، الأعلى والأسفل، المظلم والمضيء، كلها عبارة عن ثنائيات مستمدة من المعتقدات الشعبية وتصوراتهم للفضاء السكني، فتتشابه هذه الثنائيات في هذه المساكن المدروسة مع اختلاف نسبي في التمثلات المتعلقة بها والمتشكلة من المعرفة المحلية عبر الزمن، ولها دور أساسي في توجيه الفكر الهندسي للمسكن الصحراوي السوفي.

3.3. وظيفة المسكن في التنظيم الاجتماعي وتعزيز العلاقات القرابية:

المجتمعات الصحراوية تعترف بحق الجار واحترامه، فالشوارع الضيقة والتصاق المساكن ببعضها البعض يستوجب إعطاء الجار حقه، من الامتناع عن إصدار الضجيج أو الوقوف الطويل أمام بيت الجار، وكذلك تقوية العلاقات معه من خلال إشراكه في كل الأنشطة والمناسبات داخل المسكن، فالدخول للمسكن السوفي ليس متاحا للجميع ودعوة فرد ما للزيارة تبرز مدى قيمته لدى صاحب المسكن.

يؤثر المسكن على العلاقات القرابية بين أفراد العائلة، فكل عائلة لها فضاؤها الخاص يتشارك فيه أفرادها نحو تحقيق هدف مشترك، عن طريق تقسيم الأدوار بين بعضهم البعض، ما يسهم في تلبية الحاجيات المشتركة لأفراد العائلة. وهذا لا يتحقق إلا من خلال الحفاظ على العلاقة التراتبية بين أفراد العائلة داخل المسكن، أساسها الجدة والجد، حيث يفيدنا المبحوث رقم (09) أن: "الجدين هم أصحاب الكلمة العليا، ثم يليهما الابن الأكبر ثم الأصغر" أي السلطة مرتبة عمريا وعن طريق الخبرة؛ حيث تتماشى مساحة الحيز المنزلي مع خصائص الأسرة الممتدة، فتتشارك في النشاط الاقتصادي كالنشاط الفلاحي السائد محليا وذو طابع تعاوني. حتى في الاستهلاك يتّم تناول نفس الوجبة التي تحضرها النسوة بعملهن المشترك، وهو ما يعزز قيم وميزة الأسرة التقليدية حيث تتجلى مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد الواحد.

يتمتع المسكن السوفي برمزية في الفضاء الداخلي من خلال قدسية اتجاه المسكن على أن يكون في اتجاه القبلة، وعلى حسب كلام المبحوث رقم (10): "أول ما يُبنى الشق القبلي من المسكن ..." وهذا اتجاه مقدس في الثقافة الإسلامية، وكذلك اتجاه الغرف فالحمام يُحرم أن يكون في اتجاه القبلة فهو اتجاه مقدس والحمام مجال مدنس، وهو كسر للقواعد الإسلامية والمعايير التي يتفق المجتمع الصحراوي عليها، والمستمدة من الدين الإسلامي خاصة. أما المفروشات فتحمل رموزا لها دلالاتها ومعانيها، فالعروس تُطرز لها زربية بها رمز السمك

وعند التأويل الأنثروبولوجي لرمز السمكة في الثقافات الإنسانية فهي دلالة على الخصوبة وكثرة التناسل، فتنسج في الزربية اعتقادا منهم أن المرأة ستكون ولودة ذات خصوبة عالية، فتنجب كثيرا من الأولاد وتكبر الأسرة. وما جاء في قول المبحوثة رقم (11):" أن النساء في سن صغير يتعلّمن النسيج حيث عند ولادتها توضع السرة التي تنزع من جسدها في ركيزة المنسج" كدلالة ثقافية حول مكان المرأة.

4.3. القواعد الجمالية التي تتحكم بالشكل الهندسي العام:

الاهتمام بالجانب الجمالي للعمارة هدف نجده في الثقافات الإنسانية الأولى التي تبحث عن التفرد في التصميم والتشكيل العمراني (مصباح، 2011: 20)، فكل البيوت الصحراوية التقليدية على اختلاف المجال الصحراوي تشترك في لون اعتمده المجتمع دون غيره لاعتبارات بيئية حيث يمزج الجبس مع الطين ليعطي لونا يميل للرمادي تصبغ به المنازل السوفية التقليدية، فالمواد المحيطة به استغلها الفرد في عملية البناء، ووعي منه أنها المواد الأصلح التي تحقق له شعورا بالاستقرار والأمان، ومن أبرزها الجبس المحلي الذي يوفر البرودة صيفا والدفيء شتاء كون المجتمع السوفي لا يرتحل في الشتاء مثل المجتمع الشاوي، فعلى حد قول المبحوث رقم (12): "المواد المستعملة ترد على المسكن درجات الحرارة المرتفعة كما تظهره بشكل أجمل من مسكن غير مصبوغ بها" حيث تعتمد أيضا في تغطية خشونة الجدران وإضفاء طابع جمالي عليها.

إن توافق مواد البناء مع الشكل المصمّم يفرز منتجا فنيا يبرز الثقافة الجمالية البصرية التي عرفها الأفراد في فترة ما، ولعل تعدّد الزوايا في المنطقة واستقرار المجتمع كونهم غير رحّل، ساهم في التركيز على الجانب الجمالي للمسكن، وكوّنت مع الوقت مخزونا رمزيا للمجال وذاكرة للمكان تتوقف في الزمان الذي تشكلت فيه، حيث تميزه عن المسكن الشاوي السادي في عملية البناء. فيتمتع المسكن السوفي التقليدي بأنواع متعددة من الزخارف كالزخرفة بالألوان التي كانت تجلب من تونس ومن المغرب، والزخرفة بالخشب والمعادن خاصة النحاس والحديد (حسونه، 2019: 228)، والزخرفة الرمزية التي ترمز لوظيفة ومعنى معين في الثقافة الشعبية كالتعوذ وإبعاد العين أو الحسد وطلب البركة والأمان، ومنها الهلال أو راحة اليد أو السمكة (حسونه، 2019: 237)، عكس المسكن الشاوي التقليدي الذي لا يوفر أي زخرفة سوى بعض الرموز القليلة فقط؛ إذ يبدو جليا أن مساكن الأغنياء تكون أكثر زخرفة من غيرها من السكان الآخرين، وهو نوع من التمييز الطبقي يمكن لأهل المنطقة في وادي سوف تمييز الغني من عامة السكان.

الخاتمة

المسكن في المجتمع الشاوي و السوفي تشكّل نتيجة لدوافع وحاجات بيولوجية وثقافية، واتخذ المسكن شكلا يختلف من مجتمع لآخر ساهمت فيه عوامل إيكولوجية بالدرجة الأولى ثم متغيرات سوسيوثقافية واقتصادية، ثم ما لبث أن أصبح هذا المسكن يتخذ نمطا معينا يعكس ثقافة ذلك المجتمع ويترجمها في هذا الفضاء المعماري. فمن خلال تلك التحولات والاختلافات أصبح السكن واقعة أنثروبولوجيا ممتزجة بمعرفة وخبرة محلية نفهم من خلالها العمق الثقافي للتراث في العمارة المحلية على تنوع أنماطها في الجزائر.

المسكن في المجتمع الشاوي يتخذ شكلا أبسط من الناحية الهندسية والجمالية، هذا يعود لسباق الفرد الشاوي مع الزمن وكفاحه المستمر أمام البيئة القاسية الجبلية والتنقل المستمر بين الصيف والشتاء لتوفير القوت، لا تسمح له بتوفير الوقت الكافي للاهتمام بالبعد الجمالي ما يفسر الشكل السادي لمساكنهم، لكن بالمقابل يعوض المجتمع الشاوي ذلك بجملة من الخطابات الثقافية والاجتماعية؛ على عكس المجتمع السوفي المتميز بالاستقرار، ما جعله يركّز على جمالية المسكن وإعطاء أهمية أكبر للجانب الجمالي والفني في الهندسة والبناء، وهذا ناتج من طبيعة الفرد السوفي الأقل تعاملا مع الطبيعة ومن الثقافة الإسلامية التي يتثاقف معها السوفي في مختلف الزوايا المنتشرة في المنطقة والمعروفة بطابعها الجمالي الفني الإسلامي، ما سمح بنقل هذه الثقافة للمساكن التقليدية للفرد السوفي.

يترجم المسكن الشاوي و السوفي في مجتمع الدراسة ذلك الخطاب الثقافي والاجتماعي الذي ألفه أفراد المجتمع، والذي انعكس تأثيره على تصورات الأفراد لمنازلهم، منتجا المركب الثقافي الحالي، حيث يأخذ المسكن من المواد المادية المستعملة في بنائه وتجميله طابعا ثقافيا ورمزيا يحمل معاني الساكن المحلي، التي لا يمكن له أن يعيش فيه إلا بتواجدها والإحاطة به. فاختلاف الظروف الإيكولوجية والتاريخية والاقتصادية ومستوى الكثافة الدينية في المجتمعين ساهم بشكل أو بآخر في تحديد مجموعة أبعاد قيمية، رمزية، اقتصادية، اجتماعية، دينية أعطت للمكان الجاف (المسكن) حيوية وروح وخصوصية ثقافية تعكس هوية وخبرات وتطلعات وأولويات كل مجتمع وفرد في فترة كان المسكن التقليدي هو السائد والمنتشر.

يشترك المجتمعان المدروسان بتأثير جملة من القيم على هندسة وبناء المسكن، منه قيم ثقافية: كالحرمة، الخصوصية، الشرف؛ وقيم اجتماعية: حق الجيرة، سلطة الكبار، تقسيم العمل، التضامن والتعاون...إلخ. إن هذه الدراسة المقارنة لن تحيط بكل الخبايا والأسرار التي يخفيها المسكن في المجتمعين، وبالتالي فهي تفتح أفقا معرفية وبحثية للمشتغلين في حقل العمارة لإجراء دراسات مقارنة حول العمارة في مختلف المجتمعات الجزائرية واستكشاف معانيها وخصوصيتها، وهو ما من شأنه أن يزيل تلك الضبابية الابستيمية والثقافية التي تحيّر الفرد عند محاولة إدراكه وفهمه لأسباب تنوع النمط العمراني في المساكن المحلية التقليدية للمجتمعات الجزائرية.

البيبليوغرافيا

-الدراسات (كتب و مقالات):

باللغة العربية

1. بوزيد، فؤاد. (2014). المسكن التقليدي بمنطقة حوض الصومام: دراسة نموذجية. *مجلة آثار*، 12 (01)، 257-269.
2. حسونه، عبد العزيز. (2021). عمارة القرى المبكرة في وادي سوف. *مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية*، 05(02)، 401-416.
3. حسونه، عبد العزيز. (2019). العمارة والعمران بمنطقة سوف (10-13هـ/ 16-19م): دراسة أثرية وعمرانية (رسالة دكتوراه). جامعة الجزائر 02، الجزائر العاصمة.
4. خليفة، عبد القادر. (2003). الهياكل الاجتماعية والتحولات المجالية في حي النزلة –تقرت- (رسالة ماجستير). جامعة منتوري، قسطينة.
5. دحماني، فتيحة. عبة، رشيدة. (2022). ثقافة الاستهلاك وأثرها على قيم الفرد من منظور جان بودريار. *مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية*، 10(01)، 328-352.
6. ديبي، باسكال. (2017). *الباب مقاربة إثنولوجية*. البحرين: هيئة البحرين للثقافة والآثار.
7. سوالمية، نورية. (2014). توظيف الفضاءات السكنية الجاهزة بين التصورات والممارسات: حالة مدينة وهران. *مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع و التاريخ*، 06(01)، 108-119.
8. سوالمية، نورية. بووشمة، الهادي. (2018). الساكن والفضاء السكني علاقة حميمية: مقاربة أنثروبولوجية. *مجلة آفاق علمية*، 10(02)، 98-116.
9. شيا، محمد. (2005). *حالة ما بعد الحداثة: بحث في أصول التغيير الثقافي*. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
10. صولة، عماد. (2005). سيرورة الرمز من العتبة إلى وسط الدار: قراءة أنثروبولوجية في السكن التقليدي التونسي. *مجلة إنسانيات*، (28)، 05-22.
11. عثماني، الجباري. (2016). العمارة والعمران في وادي سوف (1845-1900) بعيون الرحالة والمستكشفين الفرنسيين. *مجلة الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية*، 05(01)، 44-54.
12. عساسي، عبد الحليم. الطاهر، بلال. (2017). الثوابت المجالية في المسكن التراثي التقليدي جنوب وادي الأبيض: إسقاط لثقافة الممارسة الاجتماعية اليومية للإنسان في المكان. *مجلة أنثروبولوجيا*، 03 (01)، 90-102.
13. فخار، إبراهيم. (2018). الطقوس وطقوس العبور: نحو تأسيس سوسيولوجي مفاهيمي. *مجلة إسهامات للبحوث و الدراسات*، 03 (01)، 01-12.
14. كواشي، آمال. عطابي، سناء. (2024). الساكنة وممارسة الأنشطة الاقتصادية في إفريقية خلال القرن 4هـ/10 م من خلال كتابات النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني (ت:386هـ/996م). *مجلة التاريخ المتوسطي*، 06(01)، 269-292.
15. محمد أشرف، صالح. (2018). العمارة الشعبية في ريف مصر. *مجلة المعرفة*، العدد 57(658)، 194-202.
16. المغازي، عبد المنعم. (2006). إسهامات نظرية السياق في الأنثروبولوجيا الاجتماعية (رسالة ماجيستر)، جامعة حلوان.
17. نجار، عبد الحميد. عبد اللاوي، ليندة. (2023). البعد الأنثروبولوجي والديني لبناء المسكن الصحراوي ومسألة المقاومة للعصرنة الجديدة. *مجلة أنثروبولوجية الأديان*، 19(02)، 505-575.

باللغة الأجنبية:

18. ADJALI, S. (1986). *Habitat traditionnel dans les aurès: le cas de la vallée de l'Oued Abdi*. Annuaire de l'Afrique du Nord: CNRS.
19. BOURDIEU, P. (2000). *Esquise d'une théorie de la pratique*. Paris: Editions du seuil.
20. CHOAY, F. (2006). Pour anthropologie de l'espace. France: seuil.
21. GAUDRY,M. (1929). La femme Chaouiz de l'Aurès. Paris: Libraire orientaliste Paul Geuthner.
22. JEMMA-GOUZON, D. (1986). *Villages de l'aures.* Paris: l'harmattan.
23. MARCEL, M. (1926). *Manuel d' ethnographie*. France: payot.
24. RAPPORT, A. (1972). *Poure une anthropologie de la maison*. Traduit par Meistersheim, M. Schlumberger, M. Paris: Bordas. (1969).
25. WATIN, M. (1991). *Habitat: Approche anthropologique de l''espace domestique a la reunion* (Thése du Doctorat). Université de la Reunion à Saint-Denis.

-القواميس و المعاجم:

1. إدجار، أندرو. سيدجويك، بيتر. (2024). *موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية*. ترجمة هناء الجوهري. (طبعة 02). القاهرة: المركز القومي للترجمة. (2008).
2. باين، مايكل. (2020). *قاموس النظرية الثقافية و النقدية*. ترجمة: هيثم غالب الناهي. (الجزء 02). بيروت: المنظمة العربية للترجمة. (1997)
3. ذبيان، سامي. (1990). *قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية*. لندن: دار رياض الريس للكتب و النشر.
4. الصمد، مصباح. (2011). *معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا*. بيروت: مؤسسة المجد للنشر و التوزيع.

الملحقات

الشكل رقم 01: شكل خارجي لمسكن شاوي، من تصوير الباحث

الشكل رقم 02: صورة مسكن شاوي مع فناء، من تصوير الباحث

الشكل رقم 03: صورة لشوارع دشرة منعة مأخوذة من صفحة قناة الأوراس، 2023

الشكل رقم 04: صورة لشميني وكانون شاوي

الشكل رقم 05: صورة الحوش السوفي، من تصوير الباحث

الشكل رقم 06: صورة وسط الحوش السوفي، من تصوير الباحث

الشكل رقم 07: صورة شارع شعبي في وادي سوف، من تصوير الباحث

الشكل رقم 08: صور شميني في مسكن سوفي، من تصوير الباحث